شرح القصيدة الهائية

في الزهد والترغيب والترهيب

للحافظ حكمي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

الدرس (١) إلىٰ الدرس (٣)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر. أما بعد:

بين أيدينا معاشر الكرام منظومة نافعة وقصيدة مفيدة للعلامة: الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي الإمام العَلم، الشهير بحسن التصانيف وجمال المؤلفات وحسن المنظومات العلمية المتنوعة في أبواب الشريعة.

وما حوته من علمٍ غزير وتقريرٍ نافع، وحسن استدلال وجمال ترتيب ووضوح عبارة، وأيضًا جمال نصحٍ من هذا الإمام العلامة رحمه الله تعالى. وهذه المنظومة أو القصيدة: الهائية، نظمها رحمه الله تعالى في باب شريف ومهم من العلم وهو: الزهد في الدنيا والتحذير من الافتتان بها والتكالب عليها، وأن تكون أكبر هم المرء ومبلغ علمه وغاية مقصوده.

وأن من كان كذلك أضرته الدنيا مضرةً عظيمة، وكانت سبب هلكته وحرمانه من الخير. والعلماء رحمهم الله تعالى قد كتبوا كتابات نافعة في هذا الباب ومؤلفات مفيدة، مثل الإمام: أحمد، وابن المبارك، ووكيع، وهنَّاد بن السَّرِي، وغيرهم فلهم مؤلفات في هذا الباب: الزهد، وهي مطبوعة ويستفيد منها طلاب العلم الفائدة العظيمة.

وطالب العلم بحاجة إلى أن يقرأ ما كتبه أهل العلم في هذا الباب من أجل أن تتهذب نفسه، وأن يستقيم قلبه، وأن تصلح حاله، وألا يصاب بالافتتان في الدنيا.

والناظم: الشيخ: حافظ حكمي رحمه الله تعالى في أبيات هذه المنظومة قد أحسن وأجاد في بيان ما يتعلق بهذا الباب، فمع اختصار هذا النَّظم وقلة الأبيات إلا أنها حوت خيرًا كثيرًا ونفعًا عظيمًا.

فنسأل الله عز وجل أن يجزيه على ما قدَّم في هذا النَّظم وغيره من منظوماته ومؤلفاته خير الجزاء، وأن يثقِّل بها موازينه، وأن ينزله المنازل العالية في الفردوس الأعلى، وأن يجزيه عنا وعن طلاب العلم وعن المسلمين خير الجزاء.

ونبدأ مستعينين بالله طالبين منه المد والعون في القراءة في هذه المنظومة والتعليق عليها بما تيسر، وأحب أن أشير قبل التعليق أن الشيخ زيد بن محمد بن هادي المدخلي رحمه الله تعالى، وهو من أبرز وأشهر طلاب الشيخ له تعليق مطبوع على هذه المنظومة، وفيه كفاية في توضيح مضامينها وبيان ما حوته من معانٍ عظيمة وإفادات مباركة، وهو مطبوع متداول.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولمشايخه وللمسلمين والمسلمات يا رب العالمين.

قال الإمام العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله تعالى في القصيدة الهائية في الترغيب والترهيب:

وَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا وَلَيْسَتْ ببُغْيَتِي ... وَلَا مُنْتَهَى قَصْدِي وَلَسْتُ أَنَا لَهَا

وَلَسْتُ بِمَيَّالٍ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى ... رِئَاسَاتِهَا فتْنًا وقُبْحًا لِحَالِهَا

****

صدَّر رحمة الله عليه هذه الأبيات بقوله: «**وَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا وَلَيْسَتْ بِبُغْيَتِي**» مبينًا أن الدنيا لم تأسر قلبه، ولم تستحوذ على نفسه كما هو حال كثير من الناس، ولا يقول هذه المقالة: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا!**» إلا من فطن لحال الدنيا وما فيها من فتنة وزخرف زائل ومتاع الغرور.

فصدَّر أبياته رحمه الله تعالى بقوله: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا!**» وهذا اللفظ جاء في حديثٍ صح عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَالِي وَلِلدُّنْيَا! مَا أَنَا وَالدُّنْيَا؟ إِنَّمَا مَثَلِي ومَثَلُ الدُّنيا كَرَاكِبٍ ظَلَّ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)) فهذه حال العبد في الدنيا وإقامته فيها وتمتعه بملذاتها ونحو ذلك، ما مثله إلا كمثل رجل استظل في ظل شجرة ثم مضى وانصرف أو راح وتركها.

فهذه حال الدنيا!

فإذن لماذا تستولي على قلب المرء؟! ولماذا تستحوذ على اهتمامه؟! لماذا تكون مبلغ علمه وغاية مقصوده وهذا مثلها؟!

قال: «**وَلَيْسَتْ بِبُغْيَتِي**»؛ أي: ليست الدنيا بطُلبتي ومقصودي وهمتي، وإنما الهمة منصرفة للآخرة، والرغبة منصرفة للآخرة، وهي: البُغية، وهي الرغبة، وهي غاية المنى.

«**وَلَا مُنْتَهَى قَصْدِي**»؛ أي: أن حالي في الدنيا أنها لم تستولِ على الهمة ولا على المقصد والغاية، فالقصد رضوان الله، والفوز بالدرجات العلى في الآخرة. وهذه الدنيا لم تشغل عن هذا المقصد العظيم والغاية الجليلة.

«**وَلَسْتُ أَنَا لَهَا**» ليست ببغيتي، ولست أنا للدنيا.

«**وَلَسْتُ بِمَيَّالٍ إِلَيْهَا**» ليس عندي ميل إلى الدنيا، وانشراح صدرٍ إليها، ورغبة في زينتها وزخرفها، ولا إلى رئاستها، كل ذلك ليس لي فيه همة ولا رغبة.

وَلَسْتُ بِمَيَّالٍ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى ... رِئَاسَاتِهَا نَتْنًا وَقُبْحًا لِحَالِهَا

فهذا البَدء يبين فيه رحمه الله تعالى ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم الناصح لنفسه مع هذه الدنيا، وألا يغتر بمتاعها الزائل وزخرفها الفاني وبهجتها المنقضية. فكل فرحةٍ في الدنيا تنتهي، وكل عافيةٍ في الدنيا تنتهي وكل صحةٍ في الدنيا تنتهي، وكل غنًى في الدنيا ينتهي، وكل متاعٍ في الدنيا ينتهي، فلا يغتر بها الإنسان.

ولا يعني هذا لا في قليلٍ ولا كثير أن الإنسان لا يعمل في تحصيل دنياه ورزقه ومسكنه وملبسه وكسبه، ليس المعنى أن يبقى الإنسان عالةً على الآخرين، بل يعمل ويكدح

وينصَب ويحصِّل المال، حتى لو أصبح عنده المال الكثير هذا كله لا يضره، لكن الذي يضر أن تكون الهمة هي الدنيا والبغية هي الدنيا والمقصد هو الدنيا، وأن تكون الدنيا في قلب الإنسان، وتكون هي أيضًا غاية مقصود الإنسان ومبلغ علمه؛ ولهذا جاء في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: ((وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا)) قال: أكبر همنا ومبلغ علمنا.

أما إذا اهتم بالدنيا لا يضره في تحصيل مصالحه وأرزاقه وسكناه وطعامه وشرابه وأن يدع أولاده أغنياء ((إِنَّك إنْ تَذَرْ أَوْلَادَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرًا مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً)).

ولهذا إذا لم يُفهم هذا الباب: باب الزهد في الدنيا على وجهه قد يصل بالإنسان إلى الدخول في نوع من الانحراف والمخالفة أيضًا لشرع الله سبحانه وتعالى.

فالحاصل: أن الإنسان ينبغي أن يعرف الدنيا وحقيقتها وخسَّتها وسرعة زوالها وانقضائها، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا الخير وذكر الله والعمل الصالح والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. وأن يعرف أن الدنيا بما فيها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فيعرف شأن الدنيا وحقارة الدنيا وهوان الدنيا على الله سبحانه وتعالى، فلا تكون مستولية على قلبه مسيطرة على نفسه.

قال رحمه الله تعالى:

هِيَ الدَّارُدَارُالْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْعَنَا ... سَرِيعٌ تَقَضِّيهَا قَرِيبٌ زَوَالُهَا
مَيَاسِيرُهَا عُسْرٌوَحُزْنٌ سُرُورُهَا ... وَأَرْبَاحُهَا خُسْرٌوَنَقْصٌ كَمَالُهَا
إِذَا أَضْحَكَتْ أَبكَتْ وَإِنْ رَامَ وَصْلَهَا ... غَبِيٌّ فَيَا سُرْعَ انْقِطَاعِ وِصَالِهَا

****

يقول رحمه الله تعالى في هذه الأبيات مبينًا حال الدنيا وحال الناس أيضًا مع هذه الدنيا.

يقول: «**هِيَ الدَّارُدَارُالْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْعَنَا**» هذه أمور مجتمعة للناس وحاصلة ولا بد.

فالدنيا فيها الهموم وفيها المكدرات وفيها المنغصات وفيها الآلام وفيها الأحزان إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرَّت قليلًا أحزنت كثيرًا، وما ملئ بيت فرحًا إلا وملئ ترحًا. الدنيا

فيها الضحك والبكاء، فيها الهم وفيها الحزن، فيها الآلام، فيها المنغصات، هذه حال الدنيا!

حتى وإن أوتي فيها المال أو أوتي الرئاسات أو أوتي المناصب، أو أوتي ما أوتي من الدنيا؛ لا يسلم من هذه الأمور: الهم والغم والعنا، لا يُسلَم منها في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الدنيا هذا شأنها دار الهم والغم والعنا، لكن هذه الهموم والغموم تُدَاوى في القلوب: بالدين، والشرع، والطاعة لله سبحانه وتعالى، والذكر.

ولهذا ليس هناك دواء للهموم والغموم إلا ذكر الله والإقبال على طاعة الله سبحانه وتعالى. والله كتب الشقاء والغم والهم على من أعرض عن ذكره. فإذا أقبل المرء على ذكر الله وعلى طاعته: وجد اللذة، وجد الراحة، وجد السعادة، وهناءة القلب، وقرة العين. كما قال الله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل: ٩٧] فالحياة الطيبة في الدنيا لا تكون إلا بالطاعة لله والإقبال على هداه وذكره وشكره سبحانه وتعالى.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣]؛ أي: يسعد ويهنأ في هذه الحياة الدنيا.

ولهذا تأمل في مداواة الهم والغم، قال عليه الصلاة والسلام: ((مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا غَمٌّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ...)) إلى آخر الدعاء. فأرشد إلى أن مداواة الهموم والغموم إنما هو: بذكر الله، واللجوء إلى الله، وتلاوة القرآن، والإيمان بقضاء الله وقدره، وإصلاح المعتقد.

هذا هو الذي فيه المداواة للهموم والغموم، فقال: ((اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِك، وَابْنُ أَمَتِك، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ فَرَحًا))، وفي رواية: ((فَرَجًا)).

فهذه الأمور المجتمعة في هذا الحديث: العقيدة الصحيحة، الإيمان بالقدر، المعرفة بالله وأسمائه وصفاته والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بها، والعناية بالقرآن والاستشفاء

به وأن يكون ربيع قلب الإنسان ونور صدره، وهذا لا يكون إلا إذا اشتغل بالقرآن واعتنى به.

فهذه الأمور هي التي فيها مداواة الهموم، وإلا الدنيا لا ينفك المرء فيها عن الهم والغم والآلام والنكد وغير ذلك، وإن أوتي المال وإن أوتي القصور وإن أوتي الحدائق والزهور وإن أوتي ما أوتي من الدنيا، فإنه لا ينفك من ذلك ولا يسلم منه.

إضافةً إلى هذا أنها كما قال الناظم: «**سَرِيعٌ تَقَضِّيهَا قَرِيبٌ زَوَالُهَا**»

مع هذه الأشياء التي مجتمعة فيها أيضًا «**سَرِيعٌ تَقَضِّيهَا**» سريع ما أن تنقضي؛ ولهذا الرجل فيما أوتي من الدنيا والجاه والرئاسة وما إلى ذلك يفاجأ الناس، يقال: فلان مات: انقضى، أو فلان افتقر، فإما أن تذهب عنه دنياه أو هو يذهب عنها.

هذه حال الدنيا: «**سَرِيعٌ تَقَضِّيهَا قَرِيبٌ زَوَالُهَا**» زوالها قريب، سواءً دنيا كل شخص أو الدنيا برمَّتها ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[الأحزاب ٦٣].

قريب تقضِّيها قريب زوال الدنيا وانقضاء الدنيا، أمر الدنيا وتقضيها سواء دنيا كل شخص؛ لأن من مات قامت قيامته ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤] وأيضًا تقضِّي الدنيا كلها برمتها هذا أمر ليس ببعيد، بل هو قريب. فهذا كله مما ينبِّه العبد على حال هذه الدنيا.

وأيضًا: «**مَيَاسِيرُهَا عُسْرٌ وَحُزْنٌ سُرُورُهَا**» ما في الدنيا من أمور ويُسر وأشياء من هذا القبيل، فيها العسر أيضًا وفيها النكد وفيها الآلام، وفيها المصاعب من قبل تحصيلها ومن بعد تحصيلها وفي وقت تحصيلها، كل ذلك لا ينفكُّ.

ما يُحصِّله المرء من الدنيا يعاني معاناة شديدة حتى يحصله في هموم وغموم إلى أن يحصله، ثم إذا حصَّله صار في غموم أخرى خوف أن يذهب عنه وأن يذهب من يده. فتجد الإنسان مثلًا: يطمع في سيارةٍ معينة ويتعب ويجمع لها المال وينصب ويفكر فيها ويهتم ويغتم، ثم إذا حصَّلها وصارت بيده صار في هم آخر ألا تنصدم ألا تخرب ألا يصيبه فيها كذا وكذا.

فما يسلم في أي شيء من الدنيا، ما يسلم من هذه الأمور.

قال: «**مَيَاسِيرُهَا عُسْرٌ وَحُزْنٌ سُرُورُهَا**»

«**حُزْنٌ سُرُورُهَا**» الأمور السارَّة في الدنيا أيضًا يكتنفها ما يكتنفها من أمورٍ يدخل من خلالها الحزن على قلب من حصَّلها.

«**وَأَرْبَاحُهَا خُسْرٌ وَنَقْصٌ كَمَالُهَا**»

«**أَرْبَاحُهَا خُسْرٌ**»؛ لأن الأشياء التي يربحها ويُحصِّلها الإنسان من الدنيا في الغالب أنها تكون على حساب دينه وما خلق من أجله إلا من وفقه الله سبحانه وتعالى وهداه.

«**وَنَقْصٌ كَمَالُهَا**» كمال الدنيا واكتمالها للمرء هذا نقص؛ لأنها تأخذ شيء ولا بد من نصيبه من الطاعة والعبادة والذكر لله سبحانه وتعالى.

«**إِذَا أَضْحَكَتْ أَبكَتْ**»؛ إذا أضحكت بما حصَّله الإنسان فيها من: صحة، أو مال، أو تجارة، أو رئاسة، أبكت. إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا.

«**وَإِنْ رَامَ وَصْلَهَا غَبِيٌّ**»؛ يعني: إذا رام وطمع في وصل الدنيا، وأن تكون له «**فَيَا سُرْعَ انْقِطَاعِ وِصَالِهَا**»؛ أي: سريعًا ما ينقطع هذا الوصال، إن حصل وصال فهو سريع ما ينقضي وينقطع.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد:

«سُرُورُ الدُّنْيا أَحْلامُ نَوْمٍ أوْ كَظِلٍّ زائِلٍ، إنْ أضْحَكَتْ قَلِيلًا أبْكَتْ كَثِيرًا، وإنْ سَرَّتْ يَوْمًا ساءَتْ دَهْرًا، وإنْ مَتَّعَتْ قَلِيلًا مَنَعَتْ طَوِيلًا، وما مَلَأتْ دارًا حَبْرَةً إِلَّا مَلَأتْهَا عَبْرَةً».

قال ابن مسعود: «لِكُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ فَرَحًا إِلَّا مُلِئَ تَرَحًا».

وقال ابن سيرين: «مَا كَانَ ضَحِكٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ مِنْ بَعْدِهِ بُكَاءٌ».

قال رحمه الله تعالى:

فَأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يُحُولَ بِحَوْلِهِ ... وَقُوَّتِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ اغْتِيَالِهَا

****

هذا دعاء عظيم، لمَّا شرح من حالها وبيَّن من أمرها وذكر من شأنها، دعا هذه الدعوة قال:

فَأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَحُولَ بِحَوْلِهِ ... وَقُوَّتِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ اغْتِيَالِهَا

أي: وبين أن تغتالني الدنيا، الدنيا كم اغتالت من خلق؟! وكم فُتن بها من خلق؟! وكم أهلكت من خلق؟! وكم تزينت من خلق فاغتروا بها واغتالتهم؟! ولا خلاص من اغتيال الدنيا وفَتْنِها للمرء إلا باللجوء إلى الله، والتعوذ به سبحانه وتعالى من فتنة الدنيا.

وفي صحيح الإمام البخاري رحمه الله باب في التعوذ من فتنة الدنيا، وأورد حديث سعد بن أبي وقاص: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تُعلَّم الكتابة:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ البُخْلِ، وأَعُوذُ بكَ مِنَ الجُبْنِ، وأَعُوذُ بكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ، وأَعُوذُ بكَ مِن فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وعَذَابِ القَبْرِ)) وقيل في معنى قوله: ((فِتْنَةِ الدُّنْيَا))؛ أي: أن يبيع الآخرة بما يتعجله في دنياه من: حال، أو مال، أو تجارة، أو غير ذلك.

ومن الدعوات النافعة ما جاء في حديث ابن عمر في السنن: سنن الترمذي والنسائي وغيرهما، أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بكلمات قَلَّ ما يقوم من مجلس إلا دعا بهن:

((اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنيا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا)) وأيضًا من الدعوات النافعة في هذا الباب ما ثبت في صحيح مسلم، من دعائه عليه الصلاة والسلام: ((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ - يعني: الدنيا - زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)).

فالحاصل: أن باب الدعاء هو: مفتاح الخير، ومفتاح الفرج، ومفتاح النجاة أيضًا.

فلهذا ينبغي أن يُقبِل العبد على الله سبحانه وتعالى بالدعاء: أن يعيذه من فتن الدنيا وزخرفها، وأن يصلح له دينه ودنياه وأخراه، وأن يهديه سواء السبيل، والله سبحانه وتعالى لا يرد من دعاه ولا يخيب من ناجاه سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى:

فَيَا طَالِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ جَاهِدًا ... أَلَا اطْلُبْ سِوَاهَا إِنَّهَا لَا وَفَا لَهَا

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ حَرِيصٍ وَمُشْفِقٍ ... عَلَيْهَا فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا أَنْ يَنَالَهَا

****

في هذين البيتين يقدم نصيحة من أنفع النصائح وأفْودِها للمسلم ولطالب العلم تحذيرًا من الدنيا والاغترار بها، فهو يقدم هذه النصيحة لأجل أن من بدأت نفسه تُقبِل على الدنيا وتُفتَن بها، أن يحذر أشد الحذر وأن ينتبه.

يقول: «**فَيَا طَالِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ جَاهِدًا**»؛ أي: مستغرقًا جهده ووقته وهمته وعلمه وفطنته وذكاءه، فانصرف إلى هذه الدنيا وأكبَّ عليها.

«**أَلَا اطْلُبْ سِوَاهَا**» ومراده بسواها؛ أي: الآخرة، لا تكن من أهل الدنيا وكن من أهل الآخرة، ويكون المرء من أهل الآخرة بطلب العلم والتفقه في الدين والإقبال على طاعة رب العالمين.

ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا، ولا يستويان؛ فطالب العلم يزداد رضا الرحمن وطالب الدنيا يزداد من الطغيان.

فطالب العلم يزداد رضا الرحمن، وتلا قول الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨]، وطالب الدنيا يزداد من الطغيان، ثم تلا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ(٦)أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[العلق: ٦- ٧].

«**اطْلُبْ سِوَاهَا**»؛ أي: اطلب الآخرة، وطلب الآخرة يكون بالعلم والتفقه في دين الله والفهم لشرعه سبحانه وتعالى عقيدةً وعبادة، والعمل على إقامة النفس على الطاعة، والإقبال على ما فيه رضا الله سبحانه وتعالى.

«**أَلَا اطْلُبْ سِوَاهَا إِنَّهَا**»؛ أي: الدنيا «**إِنَّهَا لَا وَفَا لَهَا**» وإنما أمرها وحالها مع أهلها أنها متاع الغرور؛ أي: الذي يغر أصحابه وأهله، ثم يزول عنهم فلا يبقى لهم.

«**فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ حَرِيصٍ وَمُشْفِقٍ عَلَيْهَا**» كم رأينا من أشخاص انشغلوا بالدنيا، وأصبحت همهم، وشغلتهم عن الطاعة، شغلتهم عن الفرائض، شغلتهم عن العبادات، شغلتهم عن التقرب إلى الله، شغلتهم عن أعمال الخير والبر.

«**فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا أَنْ يَنَالَهَا**» وإن نال منها شيئًا ذهب هذا الشيء عنه أو ذهب هو عن هذا الشيء الذي ظفر به من الدنيا.

قال رحمه الله تعالى:

لَقَدْ جَاءَ فِي آيِ الْحَدِيدِ وَيُونُسٍ ... وَفِي الْكَهْفِ إِيضَاحٌ بِضَرْبِ مِثَالِهَا
وَفِي آلِ عِمْرَانَ وَسُورَةِ فَاطِرٍ... وَفِي غَافِرٍ قَدْ جَاءَ تِبْيَانُ حَالِهَا
وَفِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ أَعْظَمُ وَاعِظٍ ... وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ مُوجِبٍ لِاعْتِزَالِهَا

****

هذه الأبيات الثلاثة تكاد تكون أعظم ما في هذا النظم، وأهم ما احتوى عليه في التزهيد في الدنيا، وبيان حالها، وأنها متاع الغرور وأنها متاع زائل وبيان الأمثال التي تكشف حال هذه الدنيا حتى يتيقظ العباد ويتنبهوا.

ففي هذه الأبيات الثلاثة وهي أعظم ما احتوت عليه هذه المنظومة بيان لحال الدنيا من خلال ما جاء في النصوص والإشارة إلى الأدلة: كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ففي البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة يقول:

لَقَدْ جَاءَ فِي آيِ الْحَدِيدِ وَيُونُسٍ ... وَفِي الْكَهْفِ إِيضَاحٌ بِضَرْبِ مِثَالِهَا

يقول: في هذه السور الثلاث: سورة الحديد، وسورة يونس، وسورة الكهف جاء فيها آيات ضُرب فيها مثال لحال الدنيا، وأن طالب العلم ينبغي حتى يعرف حال الدنيا أن ينظر في تلك الآيات، وأن يتأمل في معانيها، وأن ينظر أيضًا في كلام المفسرين رحمهم الله تعالى في

هذه الآيات حتى يعرف حقيقة الدنيا بهذه الأمثلة التي ضربها الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات.

• **أما آية الحديد:** فقول الله سبحانه وتعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

فهذا مثل عظيم جدًّا، وصدَّره الله جل في علاه بقوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ واعلموا أو اعلم هذه كلمة تنبيه يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة المهمة التي ينبغي أن يتنبه لها المرء وأن يحسن فهمها.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: مثل الحياة الدنيا.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ فهذه حال الدنيا!

﴿الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾؛ أي: مشغلة لأبدان الناس تضيع فيها الأبدان والأوقات باللعب.

﴿وَلَهْوٌ﴾ للقلوب؛ ملهية للقلب وشاغلة له، وصارفة له عما خلق لأجله فهي: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لعب بالأبدان: فالأبدان تنصرف إلى الدنيا والمتعة بزخرفها، والقلوب تلهو بهذه الدنيا وتنشغل بها حتى تُصبح هي أكبر هم الإنسان ومبلغ علمه ﴿وَزِينَةٌ﴾ زينة في الملبس، وزينة في المركب، وزينة في المسكن، وزينة... أشياء تأسر الإنسان وربما تستولي أيضًا على همته ومقصده فيصبح ليس له هم إلا ذلك.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ كل ما كثر شيء من الدنيا عند الإنسان أخذ يفخر به على الآخرين، ويتعالى فيه على الآخرين، وأنه أفضل منهم، وأحسن من فلان وأوسع وأكثر وأعز، ونحو ذلك من عبارات التفضيل.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ هذه كلها ملهيات مثل ما قال الله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر: ١-٢].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[الحديد: ٢٠]؛ يعني: كمثل مطر نزل على أرض أصابها القحط والجذب، فأنبتت من كل زوج بهيج، فأعجب الكفار نباته، واستولى على قلوبهم ما في هذا الزخرف وما في هذه الأرض من زينة وجمال أسر القلوب.

﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾[الحديد: ٢٠] إذا أردت أن تعرف هذه الدنيا من خلال هذا المثل انظر إلى الأرض في الربيع ثم إذا انقضى الربيع انظر إليها أيضًا مرةً أخرى. هذا مثل يوضح لك الدنيا ضربه رب العالمين سبحانه وتعالى. فتجد مثلًا أرض في الربيع إذا نزلت الأمطار اخضرت وزانت وجمُلَت لأهلها وطاب النظر إليها، ولا تملأ عين المرء: ينظر ويعيد النظر، ويبتهج ويُسَر بالمناظر الجميلة.

ثم إذا جئت إلى نفس الأرض بعدها بشهر أو بشهرين ربما ما يطيق النظر إليها من الجذب الذي أصابها، ولا يجد فيها شيء يشد نظره أو يبهج قلبه أو يؤنسه.

هذا مثل للدنيا، هذا مثل ضربه رب العالمين سبحانه وتعالى للدنيا في أمر يشاهده الناس بين حين وآخر وبين وقت ووقت.

قال رحمه الله: «**وَيُونُسٍ**»؛ أي: وفي سورة يونس، وهو مثل أيضًا ضربه الله سبحانه تعالى في هذه السورة، قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾[يونس: ٢٤]؛ أي: أنبتت الأرض لما نزل هذا الماء ورويت الأرض أنبتت ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾[يونس: ٢٤] أنبتت نباتًا صالح للإنسان يأكله ويلذ بأكله وأيضًا لتأكل الأنعام منه، وقل مثل هذا عندما تجمل الأرض بالربيع، فتصبح الأرض فيها الربيع الجميل والزروع تجد الإنسان يجد فيها ما يأكل ويلذ ويطيب له، وأيضًا الأنعام تأكل منها وتشبع. هذا حال الدنيا في تزينها وتجملها للمرء. ثم ماذا يكون بعد ذلك؟ قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾؛ يعني: أن هذا شيء يستمر لهم ويبقى ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤] وهذا دعوة من رب العالمين أن نتفكر في مثل هذه الآيات، وأن نتأمل في مثل هذه الأمور الموقظة المحيية للقلوب.

وقوله: «**وَفِي الْكَهْفِ**»

أيضًا ضرب الله سبحانه وتعالى المثال للدنيا بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف: ٤٥] هذه أمثلة اشتملت عليها هذه الآيات توضح حال الدنيا.

قال رحمه الله: «**إِيضَاحٌ بِضَرْبِ مِثَالِهَا**»؛ يعني: في هذه الآيات الثلاث وُضِّحت وبُيِّنت حال الدنيا بضرب المثال الذي يكشف عن حقيقتها. وهنا ينبغي أن ننتبه أن من فائدة الأمثال المضروبة أنها تقرب المعاني، وتجعل الأمور المعنوية بمثابة الأمور المشاهدة المحسوسة.

ولهذا كثرت الأمثال في القرآن؛ لأنها نافعة جدًّا في البيان، والله يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

قال:

وَفِي آلِ عِمْرَانَ وَسُورَةِ فَاطِرٍ... وَفِي غَافِرٍ قَدْ جَاءَ تِبْيَانُ حَالِهَا

أي: أن هذه السور الثلاث: سورة آل عمران، وسورة فاطر، وأيضًا سورة غافر جاء فيها تبيان حال الدنيا، وأن المتاع الذي في الدنيا هو: متاع الغرور المتاع الزائل، المتاع المنقضي الذي لا يبقى لأهله.

• **و آية آل عمران هي:** قول الله عز وجل: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

• **و آية فاطر هي:** قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[فاطر: ٥].

• **و آية غافر:** قول الله عز وجل في النصيحة التي قدمها مؤمن آل فرعون قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[غافر: ٣٩].

فهذه الآيات فيها أن الدنيا: متاع زائل، متاع الغرور، متاع فاني. فإذا كان هذا وصف حال الدنيا فلا يغتر الإنسان، لا تغره الدنيا؛ لأن المتاع مهما كبر واتسع وعظم هو في نهايته متاع زائل لا يبقى.

قال: «**وَفِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ أَعْظَمُ وَاعِظٍ**» ولعله والله أعلم! يشير إلى ما جاء في أواخر سورة الأحقاف قول الله عز وجل:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥].

هذا أعظم واعظ وأكبر واعظ أن يعرف الإنسان أنه إذا وقف يوم القيامة بين يدي الله العمر الذي عاشه في الدنيا: ستين سنة، سبعين سنة، مائة سنة، أو أقل أو أكثر، كأن لم يلبث إلا ساعة من نهار.

فمثل هذا الوقت القليل الذي سرعان ما يتصرَّم وينقضي ويذهب كيف يغر الإنسان؟! وكيف يستولي على قلبه؟! وكيف تصبح الدنيا هي أكبر همه وهذه حالها؟!

والحاصل أن هذه الأبيات وما حوته من معاني وما أشار إليه في مضامينها من أدلة كله المراد منه: ألا تستولي هذه الدنيا على قلب الإنسان، وألا تأسر قلبه، وألا تستحوذ على نفسه؛ فتصبح هي أكبر همه ومبلغ علمه وغاية مقصوده. تستولي على الوقت، تستولي على الحياة، على العمل، ثم النهاية أنها تنقضي وتنتهي، ولا يحصِّل فيها ما خُلق لأجله وهو طاعة الله سبحانه وتعالى، فتشغله عما خُلق لأجله.

سبحان الله انتبه هنا! الدنيا خلقت لأجل الإنسان، الله سخرها للإنسان، وخلقها للإنسان، وسخرها له، سخر له ما في السموات وما في الأرض، وهيأ له هذه الدنيا.

فلا ينبغي للإنسان العاقل أن ينشغل بما خلق لأجله عما خلق هو لأجله! ألا ينشغل بهذه الأشياء التي خلقت لأجل الإنسان عما خلق الإنسان لأجله. الدنيا وما فيها خلقت للإنسان وسخرها الله للإنسان، فلا ينبغي للإنسان أن تشغله هذه الدنيا عما خلقه الله لأجله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥]؛ أي: خلقهم للعبادة، وأوجدهم للطاعة، والإقبال على الله سبحانه وتعالى.

ولم يأتِ في النصوص منع من الكسب والرزق، وتحصيل المسكن والمركب لم يأتِ منعه، لكن جاء التحذير من الدنيا من أن تفتن الإنسان، وتستولي

على قلبه، وتأسر نفسه، وتصبح هي غاية همه وأكبر مقصده.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أردت أن أقرأ نصين لابن القيم فيهما فائدة عظيمة جدًّا، لكنني أكتفي بالإحالة إليهما، أما أحدهما ففي كتابه الفوائد، والأجهزة الحديثة يسرت الآن الحصول على الفائدة والوقوف عليها بسرعة.

ففي كتابه الفوائد ذكر رحمه الله فائدة، قال: «لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين» ذكرهما رحمهما الله فيهما نفع عظيم جدًّا، أنصح بقراءته في كتاب الفوائد لابن القيم.

وفي طريق الهجرتين ذكر نفس المعنى وزاد عليه أمر ثالث، قال: «والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء» فذكر الشيئين الذين ذكرهما في كتابه الفوائد وزاد عليهما أمرًا ثالثًا.

ولعل في هذه الطريقة من التشويق للوقوف على كلام ابن القيم أبلغ مما لو قرأته عليكم هكذا مباشرة، وأرجو أن يقع تشويقي لكلام ابن القيم في محله، وأن يرجع الجميع إلى كلام ابن القيم في الكتابين المشار إليهما.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد:

نواصل القراءة في هذه المنظومة النافعة والقصيدة المفيدة للعلامة حافظ حكمي رحمه الله تعالى، ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا أجمعين بما حوته من خير ونفع وفائدة.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولمشايخه وللمسلمين والمسلمات يا رب العالمين، قال الإمام العلامة: حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله تعالى في القصيدة الهائية في الترغيب والترهيب:

لَقَدْ نَظَرُوا قَوْمٌ بِعَيْنٍ بَصِيرةٍ ... إِلَيْهَا فَلَمْ تغْرُرْهُمُ بِاخْتِيَالِهَا

أُولَـٰئِكَ أَهْلُ الله حَقًّا وَحِزْبُهُ ... لَهُمْ جَنّةُ الفِرْدَوْسِ إِرْثًا وَيَا لَهَا

****

يبين الناظم رحمه الله تعالى هنا حال أهل الحق والهدى والفضل، ومن وفقهم سبحانه وتعالى، وشرح صدورهم وهداهم إلى صراطه المستقيم، أنهم نظروا إلى الدنيا «**بِعَيْنٍ بَصِيرةٍ**» وهذا النظر هو النافع للعبد؛ أن ينظر إلى الدنيا متبصرًا متأملًا: في حقيقتها، وفي هوانها على الله تبارك وتعالى وفي سرعة انقضائها وزوالها وأنها متاع الغرور وأنها زائلة وليست باقية، وأنها دار عبور وليست دار قرار.

فيذكر رحمه الله أن أهل الحق والهداية نظروا إلى الدنيا بعينٍ بصيرة فلم تغررهم.

هذا نتيجة النظر والتأمل في حقيقة الدنيا إذا تأمل المرء وأحسن النظر في حقيقتها لم يغتر بها ولم تغرره.

«**بِاخْتِيَالِهَا**»؛ أي: بزينتها وزخرفها ومتاعها.

قال: «**أُولَـٰئِكَ أَهْلُ الله حَقًّا وَحِزْبُهُ**» أولئك الذين وفقهم الله عز وجل لهذه المعرفة لحقيقة الدنيا فلم تغررهم الدنيا، لم يغتروا بها ولا بزخرفها هؤلاء هم: «**أَهْلُ الله حَقًّا**» والمراد بأهل الله؛ أي: خاصة الله: أولياؤه، أولياء الله تبارك وتعالى المختصُّون به، اختصَّهم برحمته وعظيم فضله. قد جاء في الحديث في المسند وغيره عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنَّ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ)).

فالحاصل: أن هؤلاء الذين نظروا إلى الدنيا هذا النظر وعرفوا حقيقتها وخسَّتها وزوالها وهوانها على الله لم تغررهم بزخرفها ومتاعها، فهم أهل الله حقًّا.

«**وَحِزْبُهُ**»؛ أي: المقربون، وأولياء الله سبحانه وتعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

«**لَهُمْ جَنّةُ الفِرْدَوْسِ**»؛ أي: نزلًا عند الله ومثوبةً وكرامةً أعدَّها الله سبحانه وتعالى لهؤلاء. «**لَهُمْ جَنّةُ الفِرْدَوْسِ إِرْثًا وَيَا لَهَا**»؛ أي: يا لها من إرث، ويا لها من نعمة وعطيَّة «**إرثًا لهم**» كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾[المؤمنون: ١٠] فهؤلاء هم الوارثون لهذه المَكْرُمة العظيمة والنعمة العظيمة: «**جَنّةُ الفِرْدَوْسِ**» ويا لها من مكرُمة ويا لها من نعمةٍ عظيمة. فهذا قسم، القسم الآخر:

قال رحمه الله:

وَمَالَ إِلَيْهَا آخَرُونَ لِجَهْلِهِمْ ... فَلَمَّا اطْمَأَنُّوا أَرْشَقَتْهُمْ نِبَالَهَا

أُولَـٰئِكَ قَوْمٌ آثَرُوهَا فَأُعْقِبُوا ... بِهَا الْخِزْيَ فِي الأُخْرَىٰ وَذَاقُوا وَبَالَهَا

****

هذا قسم آخر غير الأول: غرتهم الدنيا، وفُتنوا بزخرفها، وألْهَتهم مُتَعُها وسلبت أعينهم زينتها، فاغتروا بها، اغتروا بمتاع الغرور فمالوا إليها، مالوا إلى الدنيا فأصبحت هي المُنية والبُغية، وهي أكبر الهم، ومُنتهى القصد عند هؤلاء.

مال هؤلاء إليها «**لِجَهْلِهِمْ**» لجهلهم بالله سبحانه وتعالى، وبالواجب في حقه، ولجهلهم أيضًا بحقيقة الدنيا، فلم ينظروا إليها نظر الأولين، وإنما فُتنوا بالدنيا وفُتنوا بزخرفها، فمالوا إليها.

«**فَلَمَّا اطْمَأَنُّوا**» لما اطمأنوا إلى هذا الزخرف الزائل والمتاع الفاني، وظنوا لأنفسهم البقاء في هذا المتاع وهذا الزخرف «**أَرشَقَتْهُمْ نِبالَها**» والرشق هو: الرمي؛ أي: رمتهم الدنيا بنبالها؛ فذاك هلك على عصيانه وغروره وإعراضه عن طاعة ربه سبحانه وتعالى، وذاك ازداد طغيانًا بما أوتي من متاع الدنيا وزخرفها، وذاك سُلب عقله وذهب لبه افتتانًا بهذه الدنيا، وذاك عاش حياته فيها محرومًا من لذة الطاعة وهناءة القربة وقرة العين بالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فأهلكتهم الدنيا أشد الهلكة.

هذا معنى قوله رحمه الله تعالى: «**أَرْشَقَتْهُمْ نِبَالَهَا**»

«**أُوْلَئِكَ**»؛ يعني: هؤلاء القوم.

«**آثرُوهَا**»؛ أي: على الآخرة، آثروا الحياة الدنيا، وأصبحت هي الرغبة، فليس لهم مراد إلا هي، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء: ١٨].

فآثروا الدنيا، فماذا كانت النتيجة؟!

«**فَأُعْقِبُوا بِهَا الْخِزْيَ فِي الأُخْرَى**»

«**فَأُعْقِبُوا**»؛ أي: كانت العاقبة والمآل: الخزي «**فِي الأُخْرَى**»؛ أي: في الدار الآخرة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء: ١٨] أعقبوا الخزي في الأخرى.

«**وَذَاقُواْ وَبَالَهَا**»؛ الوبال: سوء العاقبة.

«**فَذَاقُواْ وَبَالَهَا**»؛ أي: باءوا بالعاقبة السيئة والمآل الوخيم يوم الخزي يوم الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيم رحمه الله:

«ومتى رأيت القلب ترحَّل عنه حب الله والاستعداد للقائه وحلَّ فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها؛ فاعلم أنه قد خُسِف به»

فإذن هما نظران:

١ - نظر بصيرة وتأمل وتَبَصُّر في الدنيا وحالها؛ فيُعقِب خيرًا ويثمر سعادةً.

٢ - ونظر آخر وهو: نظر افتتان بالدنيا وبزخرف الدنيا.

في النظر الأول سعادة المرء وفلاحه في الدنيا والآخرة، وفي النظر الآخر عطبه وهلاكه في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى في أوائل ومقدمته لكتابه العظيم النافع: رياض الصالحين، ذكر أبياتًا وهي تُنسب للإمام الشافعي، وهي مثبتة أيضًا في ديوانه رحمه الله تعالى، وفيها هذا المعنى الذي أشار إليه الناظم قال فيها:

إِنَّ للهِ عِبَادًا فُطَنَا ... طَلَقُّوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوهَا لُجَةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

فهؤلاء أهل النظر الثاقب والبصيرة النافذة وأهل حسن التأمل؛ فلهم العاقبة الحميدة والمآل الكريم في الدنيا والآخرة.

قال رحمه الله:

فَقُلْ لِلَّذِينَ اسْتَعْذَبُوهَا رُوَيْدَكُمْ ... سَيَنْقَلِبُ السُّمَّ النَّقِيعَ زُلَالُهَا

لِيَلْهَوْا وَيَغْتَرُّوا بِهَا مَا بَدَا لَهُمْ ... مَتَى تَبْلُغِ الْحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبَالُهَا

****

في هذا البيت يقول الناظم رحمه الله تعالى: «**فَقُلْ**»؛ أي: يا من وفقك الله لحسن البصيرة والمعرفة بحال الدنيا وعدم الافتتان بها، قل لمن افتُتِن بالدنيا واستعذبها.

«**قُلْ للذِينَ اسْتَعْذَبُوهَا رُوَيْدَكُمْ**» تمهلوا.

«**رُوَيْدَكُمْ**»؛ أي: تمهلوا وانظروا في العواقب، إياكم وهذا الطيش، وهذا السفه وهذا الافتتان والغرور.

رويدكم؛ تمهلوا، انظروا في العواقب قبل أن تندموا في موطن لا ينفع فيه الندم.

«**سَيَنْقَلِبُ السُّمَّ النَقِيعَ زُلَالُهَا**»؛ يعني: هذا الذي ترونه عذبًا زلالًا فُتنتم به من متع الدنيا هو في الحقيقة سينقلب إلى السم النقيع.

يقال: سمٌّ نقيع، وسمٌّ ناقع، وسمٌّ منقوع؛ أي: سمٌّ بالغ وشديد وثابت.

فهذا الذي يراه هؤلاء الذين فتنوا في الدنيا أنها عذبٌ زلال، واطمئنوا إليها ومالت إليها نفوسهم، قولوا لهم:

رويدكم! هذا الذي ترونه عذبًا زلالًا سينقلب إلى السم النقيع.

«**لِيَلْهُوا وَيَغْتَرُّوا بِهَا مَا بَدَا لَهُمْ**»

«**لِيَلْهُوا**» ليلهوا بمتع الدنيا ويغتروا بفتنها ما بدا لهم، لكن هذا ضياع وحرمان.

«**لِيَلْهُوا وَيَغْتَرُّوا بِهَا مَا بَدَا لَهُمْ**»

ما النتيجة؟!

هذا كلام عظيم جدًّا يقال للمفتون والمغتر بالدنيا: لو لهيت بهذه الدنيا واغتررت ومضيت في هذه المتع! إلى متى؟! ماذا تنتظر؟! هل ستستمر مغترًّا لاهيًا بهذه الدنيا إلى أن يفجأك الموت؟! إلى أن يداهمك الموت؟! والموت لا يفرق بين صغيرٍ وكبير! لا يقول الإنسان: أنا شاب! كم أخذ الموت من الشباب؟! وكم أتى إلى بيت فيه مسن يتوقع أهل البيت بين عشية وضحاها

أن يفقدوه فيأخذ صغيرًا من صغار البيت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤].

فيقال لهذا اللاهي المفتتن بالدنيا، المغتر بمتعها، المنشغل بزخرفها، المعرض بسبب ذلك عما خلق لأجله وأُوجد لتحقيقه:

إلى متى؟! إلى متى هذا اللهو؟! وإلى متى هذا الغرور؟! ماذا تنتظر؟! أتنتظر أن يداهمك الموت، ويبغتك الأجل وأنت على هذا اللهو وعلى هذه الغفلة؟!

وهؤلاء الذين على هذا اللهو لو عاينوا الموت لتمنوا أن يؤجَّل ليعملوا صالحًا غير الذي كانوا يعملونه. ولهذا يُذكَر عن أحد السلف أنه أراد وعظ أحد المقصرين المفرِّطين المعرضين فأخذه إلى القبور، فقال له:

يا فلان! لو كنت مكان هؤلاء ماذا تتمنى؟! لو كنت مكان هؤلاء؛ أي: مدفونًا مع هؤلاء في هذه الحفر ماذا تتمنى؟!

قال: والله أتمنى أن يعيدني الله للدنيا؛ لأعمل صالحًا غير الذي كنت أعمل، فقال: يا هذا! أنت فيما تتمناه؛ يعني: اعمل، لا تستمر في غرورك وفي لهوِك وصدودك وإعراضك.

فالناظم يقول: «**لِيَلْهُوا وَيَغْتَرُّوا بِهَا**»؛ أي: الدنيا «**مَا بَدَا لَهُمْ**»، لكن ما النتيجة؟! وما المآل في هذا الغرور؟!

«**مَتَى تَبْلُغِ الْحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبَالُهَا**»

«**مَتَى تَبْلُغِ**»؛ أي: الروح «**الْحُلْقُومَ**» تُصرم حبال الدنيا؛ كل ما يراه الإنسان من بهرج وزخرف وزينة وغير ذلك كله ينتهي وينقطع «**تُصْرَمْ**»؛ أي: تنقطع «**حِبَالُهَا**» العلائق والصِّلات التي يرتبط الإنسان بها في الدنيا: هذه تجارة، وهذا مال، وهذه قصور، وهذا كذا إلى آخره. كلها تنتهي، تُصرم حبالها.

«**مَتَى تَبْلُغِ الْحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبَالُهَا**» لكن إذا بلغت الحلقوم الأمر خطير جدًّا!

إذا بلغت؛ أي: الروح الحلقوم فالأمر خطير جدًّا؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام كما في المسند وغيره يقول: ((إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)).

((مَا لَمْ يُغَرْغِرْ))؛ أي: ما لم تبلغ الروح الحلقوم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[النساء:١٨] هذا ما ينفع! إذا حضر الموت وغرغر وأصبح معاينًا للموت التوبة حينئذ لا تنفع صاحبها فهذا اللاهي في الدنيا المغتر، بزخرفها المعرض عما خلقه الله لأجله، يقال له: إلى متى؟! ماذا تنتظر؟!

أتنتظر إلى أن يأتي هذا الموعد، ويداهمك الأجل، فتبلغ الروح الحلقوم؟!

أتنتظر الى هذا الوقت؟! بادر!

المراد بهذا الكلام الحث على المبادرة إلى التوبة، والإنابة، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله:

وَيَوْمَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ بِكَسْبِهَا ... تَوَدُّ فِدَاءً لَوْ بَنِيهَا وَمَالَهَا

وَتَأْخُذُ إِمَّا بِالْيَمِينِ كِتَابَهَا ... إِذَا أَحْسَنَتْ أَوْ ضِدَّ ذَا بِشِمَالِهَا

وَيَبْدُو لَدَيْهَا مَا أَسَرَّتْ وَأَعْلَنَتْ ... وَمَا قَدَّمَتْ مِنْ قَوْلِهَا وَفِعَالِهَا

****

يقول رحمه الله تعالى واعظًا ومذكرًا:

وَيَوْمَ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِكَسْبِهَا ... تَوَدُّ فِدَاءً لَوْ بَنِيهَا وَمَالَهَا

يعني: ولو كان الفداء بنيها ومالها، تفدي بكل شيء حتى تنجو من العذاب وسخط الجبار. فيوم القيامة هو يوم توَّفى فيه كل نفس ما كسبت. وينبغي على العبد أن يدرك ذلك، وأن أيامه وشهوره وأعوامه، كل ما يقع فيها من أقوال وأعمال محصاة عليه، ويوفَّى ذلك يوم القيامة.

«**وَيَوْمَ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِكَسْبِهَا**»؛ أي: بما كسبت وبما حصَّلت في هذه الحياة الدنيا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٢٥].

قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٦١].

﴿مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: من عمل؛ ما قدمته في هذه الحياة من أعمال، كل ذلك «**تُوَفَّى**»؛ أي: الجزاء عليه وافيًا يوم القيامة، يوم الوقوف بين يدي الله عز وجل.

المعرِض الظالم المفرط يندم ندمًا شديدًا على تفريطه وتضييعه، ويود في ذلك اليوم ولا ينفعه هذا الوُدُّ وهذه الرغبة، يود فداءً أن يفدي نفسه من العذاب وسخط الله سبحانه وتعالى «**لَوْ بَنِيهَا وَمَالَهَا**»؛ يعني: لو كان الفداء بنيها ومالها، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[المعارج: ١١-١٤] يود الفداء.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾[الرعد: ١٨]؛ أي: من عذاب الله وعقوبته

في ذلك اليوم.

«**تَوَدُّ فِدَاءً**»؛ أي: فداءً لنفسها، تفديةً لنفسها من عذاب الله تبارك وتعالى «**لَوْ بَنِيهَا وَمَالَهَا**»؛ أي: لو كان الفداء بَنِيها ومالها. وفي ذلك اليوم الذي هو يوم التوفية: توفية الأعمال والجزاء على الأعمال قال: «**وَتَأْخُذُ إِمَّا بِالْيَمِينِ كِتَابَهَا إِذَا أَحْسَنَتْ**» وهم من وفقهم الله سبحانه وتعالى للعمل الصالح ولم يغتروا بالدنيا وزخرفها، يأخذون كتبهم بأيمانهم؛ جزاء الإحسان الذي كان منهم في هذه الحياة الدنيا.

« **أَوْ ضِدَّ ذَا**»؛ يعني: ضد الإحسان وهو الإساءة «**بِشِمَالِهَا**» يكون الأخذ للكتاب بالشمال.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(١٩)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٢١)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦)يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧)مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ(٢٨)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ(٢٩)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٣٢].

ففي ذاك اليوم العظيم تتطاير الصحف؛ فآخذٌ كتابه باليمين وآخذٌ كتابه بالشمال.

وفي ذلك اليوم أيضًا تبدو للإنسان الأعمال التي قدمها:

وَيَبْدُو لَدَيْهَا مَا أَسَرَّتْ وَأَعْلَنَتْ ... وَمَا قَدَّمَتْ مِنْ قَوْلِهَا وَفِعَالِهَا

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[الانفطار: ٥] في ذاك اليوم يقف الإنسان على عمله، ويكون عمله كله حاضرًا، ويجازى عليه، فيرى أعماله كلها في كتاب لا يغادر من أعماله صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وكل ذلك يجده حاضرًا، ثم يجازى على العمل كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾[النجم: ٣١]، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ١٥].

فهذا كله مما يدعو العبد إلى التيقظ والتفطن، وأن يأخذ نفسه بأخذ الحزم والعزم، وأن يزمَّ زمامه بزمام الحق والهدى، وأن يحذر أشد الحذر من التفريط والتهاون والتسويف والتأجيل، يحذر من ذلك أشد الحذر.

وَيَبْدُو لَدَيْهَا مَا أَسَرَّتْ وَأَعْلَنَتْ ... وَمَا قَدَّمَتْ مِنْ قَوْلِهَا وَفِعَالِهَا

كل ذلك سيراه، ويلقاه في كتاب مسطور، حوى كل ما قدم المرء في هذه الحياة الدنيا من أقوال أو أعمال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

قال رحمه الله تعالى:

بِأَيْدِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ مُسَطَّرٌ... فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا عُذْرُها وَجِدَالُهَا

هُنَالِكَ تَدْرِي رِبْحَهَا وَخَسَارَهَا ... وَإِذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا إِلَيْهِ مَآلُهَا

فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالتُّقَى ... فَإِنَّ لَهَا الْحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِهَا
تَفُوزُ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ وَحُورِهَا ... وَتُحْبَرُ فِي رَوْضَاتِهَا وَظِلَالِهَا

وَتُرْزَقُ مِمَّا تَشْتَهِي مِنْ نَعِيمِهَا ... وَتَشْرَبُ مِنْ تَسْنِيمِهَا وَزُلَالِهَا

****

يقول رحمه الله تعالى: «**بِأَيْدِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ مُسَطَّرٌ**»؛ الجار والمجرور هنا متعلق بما جاء في البيت الذي قبله: قال:

وَيَبْدُو لَدَيْهَا مَا أَسَرَّتْ وَأَعْلَنَتْ ... وَمَا قَدَّمَتْ مِنْ قَوْلِهَا وَفِعَالِهَا
بِأَيْدِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ مُسَطَّرٌ

فكل ما قدمه العبد يجده مكتوبًا مسطرًا، سُطِّر بأيدي الملائكة الكاتبين كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨] والله سبحانه وتعالى وَكَل إلى الملائكة الذين خصَّهم بهذا الأمر، وَكَل إليهم كتابة الأعمال وتسطيرها ونسخها فيكتبون كل ما

يقوله العبد وكل ما يفعله العبد، فيرى العبد ما قدَّم مكتوبًا مسطرًا من أقوالٍ وأفعال، يجد ذلك مكتوبًا، كتبته الملائكة بأيديها وسطَّرته على العبد كل أقواله وأعماله.

وفي ذلك اليوم الشأن كما قال الله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨)هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٨-٢٩]، ﴿نَسْتَنسِخُ﴾؛ أي: ملائكتنا تكتب أعمالكم فتُحصى عليكم مسطَّرةً مدونةً مكتوبة في كتابٍ يجده العبد يوم القيامة حاضرًا وحينئذٍ فالأمر كما يقول رحمه الله:

«فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا عُذْرُها وَجِدَالُهَا» إذا قامت تعتذر وتجادل فلا ينفع يومئذٍ المعذرة ولا ينفع الجدال؛ لأنه فرَّط وضيَّع، فلا يفيد الجدال ولا يفيد العذر في ذلك اليوم؛ لأن ذلك اليوم هو يوم الجزاء ويوم الحساب.

يقول: **«هُنَالِكَ تَدْرِي رِبْحَهَا وَخَسَارَهَا»** هنالك إذا أخذ الكتاب، ووجد فيه الأعمال محصاةً عليه، ولم يبقَ إلا حلول العقوبة.

«هُنَالِكَ تَدْرِي رِبْحَهَا وَخَسَارَهَا» هنالك يظهر الرابح الذي ينقلب إلى أهله مسرورًا والخاسر والعياذ بالله.

«وَإِذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا إِلَيْهِ مَآلُهَا»؛ أي: ما تؤول إليه؛ لأن ذاك اليوم هو يوم الجزاء: فالمحسن يؤول أمره إلى الفوز بالإحسان، والمسيء يؤول أمره إلى العقوبة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾[الروم: ١٠].

وفي المحسن قال: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾[النجم: ٣١].

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[الرحمن: ٦٠].

ثم فصَّل ذلك قال: **«هُنَالِكَ تَدْرِي رِبْحَهَا وَخَسَارَهَا»**؛ هناك الرابح وهناك الخاسر، ففصَّل ذلك، فبدأ أولًا: بالقسم الرابح، وذكر ما أُعدَّ لهم: المآل الذي يؤول إليه أمرهم؛ لأن هذا الآن: الأبيات الآتية كلها تفصيل في المآل: مآل الرابح، ومآل الخاسر.

أما مآل الرابح فيقول في تبيانه رحمه الله:

فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادِةِ وَالتُّقَى ... فَإِنَّ لَهَا الْحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِهَا

«**فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادِةِ وَالتُّقَى**» إذا كان العبد من أهل السعادة الذين كتب الله سبحانه وتعالى لهم السعادة، وسلك بهم طريق السعادة وأهل الملازمة لتقوى الله «**فَإِنَّ لَهَا الْحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِهَا**»

مثل ما قال الله: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم: ٣١]، وكما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[الرحمن: ٦٠].

فأهل السعادة والتقى لهم عند الله الحسنى بحسن الفعال التي قدموها في هذه الحياة الدنيا. ثم فصَّل في الثواب قال: «**تَفُوزُ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ**» التي أعدها الله سبحانه وتعالى نزلًا لعباده المتقين وأوليائه المقربين.

«**وَحُورِهَا**»؛ أي: ما أعد الله لهم فيها من الحور العين «**وَتُحْبَرُ**»؛ أي: تُنعَّم «**فِي رَوْضَاتِهَا وَظِلَالِهَا**» ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[الروم: ١٥]؛ أي: يُنعَّمون، وَتُحْبَر؛ أي: تُنعَّم «**فِي رَوْضَاتِهَا**»؛ أي: روضات الجنة.

«**وَظِلَالِهَا**»؛ أي: يتنعمون ويهنئون ويتلذذون بنعيم الجنة.

«**وَتُرْزَقُ**»؛ أي: في الجنة «**مِمَّا تَشْتَهِي مِنْ نَعِيمِهَا وَتَشْرَبُ مِنْ تَسْنِيمِهَا وَزُلَالِها**» ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾[المطففين: ٢٧].

وَتُرْزَقُ مِمَّا تَشْتَهِي مِنْ نَعِيمِهَا ... وَتَشْرَبُ مِنْ تَسْنِيمِهَا وَزُلَالِها

أي: أنهم يهنئون بنعيم الجنة: ((فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٧].

ثم ذكر بعد ذلك أعظم النعيم، وهو: النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه وتعالى وهو الزيادة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦].

وأيضًا فصَّل بعض الشيء في النعيم: نعيم الجنة، وما أعده الله سبحانه وتعالى لأهلها من صنوف النعيم وأنواع المِنن.

ثم بعد ذلك انتقل رحمه الله تعالى للكلام على القسم الثاني وهم: المفرطون المضيعون، فأخذ يتحدث عنه عند قوله: «**وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى**».

ويبقى هذا القدر من النَّظم يستكمل بإذن الله سبحانه وتعالى في لقاء الغد ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يزيدنا علمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، إنه تبارك وتعالى سميع قريب مجيب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الثالث

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد:

نواصل القراءة في هذه القصيدة الهائية للعلامة حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله تعالى، ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا أجمعين، وأن يلهمنا رشد أنفسنا، وأن يصلح لنا شأننا كله، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونِعم الوكيل.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولمشايخه وللمسلمين والمسلمات يا رب العالمين. قال رحمه الله تعالى:

قال الإمام العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله تعالى في القصيدة الهائية في الترغيب والترهيب:

وَإِنَّ لَهُمْ يَوْمَ الْمَزِيدِ لَمَوْعِدًا ... زِيَادَةَ زُلْفَىٰ غَيْرُهُمْ لاَ يَنَالُهَا

وَجُوهٌ إِلِىٰ وَجْهِ الْإِلَٰهِ نَوَاظِرٌ... لَقَدْ طَالَ مَا بِالدَّمْعِ كَانَ ابْتِلَالُهَا

تَجَلَّىٰ لَهَا الرَّبُّ الرَّحِيمُ مُسَلِّمًا ... فَيَزْدَادُ مِنْ ذَاكَ التَّجَلِّي جَمَالُهَا

****

في هذه الأبيات الثلاثة يذكر الناظم رحمه الله تعالى النعيم العظيم الذي هو أكمل النعيم وأتمُّه، والذي يكرِم الله سبحانه وتعالى به أهل الإيمان في جنات النعيم ألا وهو النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى.

قال: «**وَإِنَّ لَهُمْ**»؛ أي: أهل الجنة.

يَوْمَ الْمَزِيدِ لَمَوْعِدًا ... زِيَادَةَ زُلْفَى غَيْرُهُمْ لاَ يَنَالُهَا

المراد بيوم المزيد: يوم الجمعة، وفيه يكرمهم الله سبحانه وتعالى، ويشرِّفهم بالنظر إليه سبحانه وتعالى، كما جاء في مسند البزَّار ومعجم الطَّبراني وغيرهما في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام، وفيه أن جبريل قال: ((وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ)).

((وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ))؛ يعني: يوم الجمعة: يوم المزيد. وجاء في الحديث أن الله سبحانه وتعالى يزيد المؤمنين في ذلك اليوم من الكرامة؛ فيزدادون فيه نظرًا إلى وجه الله سبحانه وتعالى.

قال: «**وَإِنَّ لَهُمْ يَوْمَ المَزِيدِ لَمَوْعِدًا**»

«**زِيَادَةَ زُلْفَى**»؛ أي: زيادةً على النعيم والإكرام، الذي يمنُّ الله سبحانه وتعالى به عليهم في الجنة، فـ: ((فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) زيادةً على ذلك يكرمهم الله بالرؤيا. وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿لِلَّذينَ أَحسَنُوا الحُسنىٰ وَزِيادَةٌ﴾[يونس: ٢٦].

وقد جاءت السنة بتفسير الزيادة: بالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى الكريم.

«**زِيَادَةَ زُلْفَى**»؛ أي: مكانةً وقربًا ومنزلةً.

«**غَيْرُهُمْ لَا يَنَالُهَا**» وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين : ١٥]، فلا ينال هذه الرؤيا ولا يشرف بها إلا أهل الإيمان، فهم من وُعدوا بذلك: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فَتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)).

«وُجُوهٌ إِلَى وَجْهِ الإِلَهِ نَوَاظِرٌ»

«وُجُوهٌ»؛ أي: وجوه أهل الإيمان.

«إِلَى وَجْهِ الإِلَهِ نَوَاظِرٌ»؛ أي: بأبصارها حقيقة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢)إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢- ٢٣].

﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النُضرة: وهي الحُسن والبهاء.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: بأبصارها، وحُقَّ لها أن تكون ناظرةً حسنةً بهيَّة وهي تنظر إلى الله سبحانه وتعالى.

«لَقَدْ طَالَ»؛ أي: في الدنيا **«مَا بالدَّمْعِ كَانَ اِبْتِلَالُهَا»**؛ أي: كم ابتلَّت أعينهم في الدنيا بالدمع، ولعل المراد بالدمع هنا ما هو متعلق بالمذكور في البيت وهو هذا النعيم: النظر إلى الله سبحانه وتعالى. قد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه: الزاد، أن البكاء أنواع، وذكر رحمه الله تعالى من جملتها: بكاء المحبة، والشوق.

فكم اشتاقت قلوبٌ في الدنيا وتاقت نفوسهم، وطمعوا غاية الطمع، وعظُم رجاؤهم بالله ودعاؤهم إياه سبحانه وتعالى أن يكرمهم بهذا النظر، مُؤْتسين بنبيهم عليه الصلاة والسلام في دعائه: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فَتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)).

«تَجَلَّى لَهَا الرَّبُّ الرَّحِيمُ مُسَلِّمًا»؛ التجلي: الظهور، بل هو كمال الظهور. **«تَجَلَّى لَهَا»**؛ أي: لتلك الوجوه؛ فأُكرمت بالنظر إلى الرب الكريم.

«الرَّبُّ الرَّحِيمُ»؛ وذِكر هذا الاسم هنا: الرحيم؛ تنبيهًا إلى أن هذه الكرامة العظمى إنما نالوها برحمة الله ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٣].

وقد جاء في صحيح مسلم في حديث جابر، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فَيَتَجَلَّى لَهُمْ))؛ أي: الله، ((يَضْحَكُ))، ((فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ)).

وقول الناظم: «مُسَلِّمًا»؛ أي: عليهم. وهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨] المضمون الذي في الآية ضمَّنه البيت، قال: «مُسَلِّمًا»، وفي الآية: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس: ٨٥].

«فَيَزْدَادُ مِنْ ذَاكَ التَّجَلِّي»؛ أي: الظهور: ظهور الرب لهؤلاء، فيرونه.

«جَمَالُهَا»؛ أي: يزدادون حُسنًا وجمالًا، فكلما كان هذا النظر زاد الحُسن والجمال، وإذا رجعوا إلى أهليهم كما جاء في الحديث يقولون لهم: ((ازْدَدْتُّمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا)).

وهذا المعنى أيضًا تدل عليه الآية الكريمة المتقدم ذكرها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢)إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣].

وقد جاء في صحيح مسلم من حديث صهيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ اللهُ: هَلْ تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى اللهِ عزَّ وجلَّ)).

قال رحمه الله تعالى:

بِمَقْعَدِ صِدْقٍ حَبَّذَا الْجَارُ رَبُّهُمْ ... وَدَارِ خُلُودٍ لَمْ يَخَافُوا زَوَالَهَا

فَوَاكِهُهَا مِمَّا تَلَذُّ عُيُونُهُمْ ... وَتَطَّرِدُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِهَا

عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ثُمَّ فُرْشُهُمْ ... كَمَا قَالَ فِيهَا رَبُّنَا وَاصِفًا لَهَا

بَطَائِنُهَا إِسْتَبْرَقٌ كَيْفَ ظَنُّكُمْ ... ظَوَاهِرُهَا لَا مُنْتَهَى لِجَمَالِهَا

****

في هذه الأبيات يذكر الناظم رحمه الله تعالى شيئًا من أوصاف الجنة في ضوء ما دلت عليه النصوص وجاءت به الأدلة، فيقول: أن هذا النعيم الذي يفوز به هؤلاء:

«**بِمَقْعَدِ صِدْقٍ**» والمراد بمقعد الصدق: الجنة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(٥٤)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٤ - ٥٥] والجنة سميت: مقعد صدق؛ لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها فالشيء التام الذي حصل فيه المراد تامًّا يوصف بهذا الوصف مثل ما يقولون: محبة صادقة، مودة صادقة، تعامل صادق.

«**مَقْعَدِ صِدْقٍ**»؛ أي: يجد من يفوز به كل ما يريد من: المقعد الحسن، والنعيم، واللذة، والهناءة، وقرة العين.

«**حَبَّذَا الْجَارُ رَبُّهُمْ**»؛ وهذا فيه أن المعنى الذي جاء في الآية: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(٥٤)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٤ - ٥٥] وفي دعاء مريم ابنة عمران قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١] اختارت - كما ذكر أئمة التفسير وأهل العلم - الجار قبل الدار، قالت: عندك في الجنة؛ فاختارت الجار قبل الدار.

فقوله: «**حَبَّذَا الْجَارُ رَبُّهُمْ**»؛ هذا مأخوذ من الآية: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(٥٤)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٤ - ٥٥].

«**وَدَارِ خُلُودٍ لَمْ يَخَافُوا زَوَالَهَا**»؛ أي: الدار التي هي: الجنة، والتي أكرمهم الله سبحانه وتعالى هي دار خلود، خالدين فيها أبد الآباد، في نعيم لا يحول ولا يزول ولا ينقطع ولا يفنى.

«**لَمْ يَخَافُوا زَوَالَهَا**»؛ بخلاف النعيم الذي يظفر به الإنسان في الدنيا فإنه عن قريب ينقطع ويزول، أما نعيم الجنة فهو نعيم دائم أبدي، لا يحول ولا يزول ولا ينقطع.
«**فَوَاكِهُهَا مِمَّا تَلَذُّ عُيُونُهُمْ**»؛ يعني: في الجنة من الفواكه والطعام ما لذ وطاب، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الزخرف: ٧١].

فَوَاكِهُهَا مِمَّا تَلَذُّ عُيُونُهُمْ ... وَتَطَّرِدُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِهَا

أي: تجري الأنهار من خلال هذه الجنة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ كما جاء في غير ما آية من كتاب الله سبحانه وتعالى.

قال: «**عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ**» كما في الآية الكريمة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥)مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾[الواقعة: ١٥- ١٦] ومعنى «**مَوْضُونَةٍ**»؛ أي: منسوجة بالذهب والجوهر، فتكون في غاية الحسن وتمام الجمال.

عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ثُمَّ فرْشُهُمْ ... كَمَا قَالَ فِيهَا رَبُّنَا وَاصِفًا لَهَا

«**بَطَائِنُهَا إِسْتَبْرَقٌ**»؛ الفرش التي ينامون عليها أو الفرش التي يتكئون عليها بطائنها استبرق كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[الرحمن: ٥٤].

والإستبرق هو: ما غلُظ من الديباج.

بَطَائِنُهَا إِسْتَبْرَقٌ كَيْفَ ظَنُّكُمْ ... ظَوَاهِرُهَا

إذا كان البطائن من إستبرق في غاية الحسن والجمال، فكيف ظنكم ظواهرها؟! إذا كانت هذه البواطن فكيف الظواهر؟!

ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير هذه الآية: فما الظن بالظواهر؟ وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر؟ أي أنها في غاية الحُسن والجمال

«**لَا مُنْتَهَى لِجَمَالِهَا**»؛ أي: جمال الظواهر؛ إذا كان البطائن من إستبرق فكيف الظواهر؟! لا منتهى لجمال الظواهر.

قد قال الله سبحانه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦)فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٦- ١٧]، وفي الحديث قال: ((فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)).

نسأل الله عز وجل أن يكرمنا أجمعين بدخولها، والفوز بهذا النعيم، نسأله تبارك وتعالى الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل.

قال رحمه الله تعالى:

وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ ... وَنَارُ جَحِيمٍ مَا أَشَدَّ نَكَالَهَا

لَهُمْ تَحْتَهُمْ مِنْهَا مِهَادٌ وَفَوْقَهُمْ ... غَوَاشٍ وَمِنْ يَحْمُومَ سَاءَ ظِلَالُهَا

طَعَامُهُمُ الْغِسْلِينُ فِيهَا وَإِنْ سُقُوا ... حَمِيمًا بِهِ الْأَمْعَاءُ كَانَ انْحِلَالُهَا

أَمَانِيُّهُمُ فِيهَا الْهَلَاكُ وَمَا لَهُمْ ... خُرُوجٌ وَلَا مَوْتٌ كَمَا لَا فَنَا لَهَا

****

قوله رحمه الله: «**وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ**» هذا معطوف على ما سبق؛ لأنه في ما سبق ذكر أولًا: قال: «**فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادِةِ**»، ثم ذكر أوصاف النعيم الذي أعده الله لأهل السعادة، ثم عطف، فقال: «**وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ**»؛ أي: أهل الشقاوة؛ لأن ما سبق هو ما أعده الله سبحانه وتعالى لأهل السعادة؛ لأنه قال: «**فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادِةِ وَالتُّقَى فَإِنَّ لَهَا**» كذا وكذا إلى آخره. ثم قال: «**وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ**» الأخرى؛ أي: ضد السعادة: الشقاوة.

«**وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ**»؛ أي: أهل الشقاوة.

«**فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ**»؛ أي: ويلٌ لها وحسرة.

والويل؛ قيل: الخزي. وقيل: العذاب. وقيل: الهلاك. وقيل: وادٍ في جهنم. قد جاءت هذه اللفظة في مواطن عديدة في الوعيد للمكذبين المعرضين: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

«**وَحَسْرَةٌ**»؛ أي: ندامة وأسف، حيث لا تنفع الندامة ولا يفيد الأسف. ويوم القيامة يسمى: يوم الحسرة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾[مريم: ٣٩]؛ لأنهم يتحسرون وتتقطع أفئدتهم أسفًا وندامة، لكن لا يفيدهم ذلك ولا ينفعهم.

«**وَنَارُ جَحِيمٍ**»؛ أي: أعدت لهم.

«**مَا أَشَدَّ نَكَالَهَا**» النكال: العقوبة، ما أشد العقوبة التي أعدت لهؤلاء أهل الشقاوة في النار. ثم ذكر بعض الأمثلة من ذلك. قال:

لَهُمْ تَحْتَهُمْ مِنْهَا مِهَادٌ وَفَوْقَهُمْ ... غَوَاشٍ وَمِنْ يَحْمُومَ سَاءَ ظِلَالُهَا

في هذا البيت جمع رحمه الله تعالى ما تضمنه قول الله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَاد﴾؛ أي: فراش، فالفراش الذي يفترشونه من جهنم.

﴿ومِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: اللحاف الذي يَتلحفُّون به من فوقهم أيضًا من جهنم.

لهم من جهنم مهاد ولهم منها من فوقهم غواش؛ فالفراش الذي يفترشونه هو من جهنم، والغطاء الذي يتغطونه من جهنم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله رحمه الله: «**وَمِنْ يَحْمُومَ سَاءَ ظِلَالُهَا**» ضمَّن هذا ما دل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ(٤١)فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ(٤٢)وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ(٤٣)لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[الواقعة: ٤١ - ٤٤].

فقوله: «**وَمِنْ يَحْمُومَ سَاءَ ظِلَالُهَا**»؛ أي: الظل الذي يستظلون به ظلٌّ من يحموم، وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من يحموم، واليحموم: الدخان شديد السواد. إضافةً إلى ذلك: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ ﴿لَّا بَارِدٍ﴾؛ أي: المنزل، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: المنظر. فهذا ظلال هؤلاء في جهنم.

ثم قال: «**طَعَامُهُمُ الْغِسْلِينُ**» طعامهم؛ أي: الشيء الذي يطعمونه: الغسلين كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥)وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[الحاقة: ٣٥ - ٣٦].

طَعَامُهُمُ الْغِسْلِينُ فِيهَا وَإِنْ سُقُوا ... حَمِيمًا بِهِ الْأَمْعَاءُ كَانَ انْحِلَالُهَا

أي: تتقطع بشربهم له الأمعاء ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[محمد: ١٥]، ثم ختم رحمه الله تعالى ذكره للأوصاف: أوصاف النار، أعاذنا الله عز وجل أجمعين منها وأهلينا وذرياتنا، ختمها بقوله:

أَمَانِيُّهُمُ فِيهَا الْهَلَاكُ وَمَا لَهُمْ ... خُرُوجٌ وَلَا مَوْتٌ كَمَا لَا فَنَا لَهَا

هذه أربعة أمور ذكرها عن حال أهل النار، وهم في النار يذوقون فيها أشد العذاب:

الأول: «**أَمَانِيُّهُمُ فِيهَا الْهَلَاكُ**»؛ يعني: أكبر أمنية عنده في النار أن يهلك أن يموت، أن يُقضى عليه فيموت، هذه أكبر أمنية.

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[النبأ: ٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[فاطر: ٣٦] فأمنيته أن يموت، هذه «**أَمَانِيُّهُمُ فِيهَا الْهَلَاكُ**».

الثاني: «**وَمَا لَهُمْ خُرُوجٌ**»؛ أي: من النار كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة: ١٦٧].

والأمر الثالث: «**وَلَا مَوْتٌ**» وهذا جاء أيضًا في آيات منها قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ

كَفُورٍ(٣٦)وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٦ - ٣٧].

«كَمَا لَا فَنَا لَهَا»؛ أي: أن هذه النار: نار هؤلاء الكفار لا تفنى، بل هي باقية أبد الآباد، وهم مخلدون في هذا العذاب أبد الآباد، كما جاء في غير آية من القرآن: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[النساء: ٥٧].

قال رحمه الله تعالى:

مَحَلَّيْنِ قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا ... لِتَكْسِبْ أَوْ فَلْتَكْتَسِبْ مَا بَدَا لَهَا

فَطُوبَى لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ ... فَتَنْجُو كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا

****

لما ذكر رحمه الله تعالى - فيما تقدم - ما أعده الله لأهل السعادة، وذكر جملةً من أوصاف نعيم الجنة، وما أعده الله لأهل الشقاوة، وذكر جملةً من أوصاف النار، مشيرًا في كل ذلك إلى ما قد دلت عليه الأدلة.

قال رحمه الله تعالى ناصحًا وواعظًا ومنبهًا ومذكرًا: **«مَحَلَّيْنِ قُلْ للنفْسِ لَيْسَ سِواهُمَا»** إما هذا أو هذا، يجب على كل إنسان أن ينصح لنفسه؛

لأن هذه الدار لا بد من الانتقال إليها والارتحال إليها، وليس فيها إلا محلين لا بد من أحدهما.

«مَحَلَّيْنِ قُلْ لِلنَّفْسِ»؛ أي: ناصحًا وواعظًا ومذكرًا ومنبهًا **«لَيْسَ سِواهُمَا»** إما الجنة أو النار ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى: ٧] ليس هناك محل ثالث، لا يوجد بعد الارتحال إلى الدار الآخرة إلا أحد هذين المحلين: إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

«لَيْسَ سِواهُمَا»؛ يعني: لا يوجد محل ثالث سوى هذين المحلين. إذن فماذا علينا؟!

قال ناصحًا: «**لِتَكْسِبْ أَوْ فَلْتَكْتَسِبْ مَا بَدَا لَهَا**» فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦].

«**لِتَكْسِبْ**»؛ أي: الحسنات، تكسب الحسنات والطاعات والقُرَب التي يفوز الإنسان بفعلها بالجنات والدرجات العالية في الجنة.

«**أَوْ فَلْتَكْتَسِبْ**»؛ أي: السيئات الموجبة لسخط الجبار ودخول النار، فإن الأمر كما قال الله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]؛ أي: من خير؛ فلها أجره وثوابه، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]؛ أي: من شر؛ فعليها وزره وعقابه. هذا أو هذا «**لِتَكْسِبْ أَوْ فَلْتَكْتَسِبْ مَا بَدَا لَهَا**»

فإن الموعد للمجازاة على الأعمال يوم لقاء الله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم: ٣١]، فهذا نُصح عظيم من الشيخ رحمه الله تعالى في أن العبد إذا تأمل في هذه المواعظ وهذه

التذكيرات وما حواه ما سبق من ترغيب وترهيب ورجاء وخوف ورغبة ورهبة، ينتبه! وينبه نفسه، ويذكرها بالمصير والمآل، وأن الأمر يوم القيامة ما ثمة إلا جنة ونار، والجنة لها أعمال والنار لها أعمال.

«**لِتَكْسَبْ أَوْ فَلْتَكْتَسِبْ**» واحدة منها: إن كسب الأعمال الصالحة فاز بثوابها وأجرها، وإن اكتسب والعياذ بالله! السيئات فاز بعقوبتها ووزرها، ولا تنفع الأماني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[النساء: ١٢٣]، ثم ختم رحمه الله تعالى هذا النظم النافع المفيد بقوله:

فَطُوبَىٰ لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ ... فَتَنْجُو كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا

وفي هذا ردٌّ لآخر النَّظم إلى أوله؛ لأنه بدأ النظم بقوله: «**وَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا وَلَيْسَتْ ببُغْيَتِي**» فختم بهذا البيت برد عَجُز هذا النظم وآخره إلى صدره وأوله.

قال: **فَطُوبَى لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ**

«**طُوبَى**»؛ أي: حال طيبة كريمة ومآل طيب وكريم في جنات الرضوان والفوز العظيم المقيم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[الرعد: ٢٩].

«**فَطُوبَى لِنَفْسٍ**»؛ أي: تنبهت وتيقظت، ولم تغتر بهذه الحياة الدنيا وزخرفها «**جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ**» جوَّزت؛ التجوز هو: التخفيف، فلم تنهمك في هذه الدنيا وتكون حالها حال الغافلين، الذين لا هم لهم إلا الدنيا، فهي

شغلهم الشاغل، وهمهم العظيم، وهي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، ومنتهى مقصودهم، فسلِم من ذلك.

«**فَطُوبَى لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ**» جوزت في هذه الدنيا، وتخففت من هذه الدنيا ولم تنهمك فيها وفي زخرفها ومتعها.

«**فَتَنْجُو**»؛ أي: يوم اللقاء.

«**كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا**» يقال: كفافًا؛ أي: سواءً بسواء، لا يوجد موجب للعقاب، ولا يوجد أيضًا موجب للثواب. هذا معنى كفافًا «**فَتَنْجُو كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا**»

ولعل مما يعين إعانة تامة في فهم المعنى الذي يشير إليه رحمه الله تعالى أن نتأمل في حديث خرجه الترمذي في جامعه، وقال عنه الألباني رحمه الله: صحيح الإسناد، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن رجلًا قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين؛ أي: عبيد أرقة، يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، هذا الذي يكون منهم لي، وهذا الذي يكون مني لهم، فكيف أنا منهم؟ كيف يكون أمري من هؤلاء؟ هم هذا فعلهم، وهذا أيضًا أنا فعلي في مقابل ما يفعلون قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((يُحْسَبُ - يعني: يوم القيامة - مَا خَانُوكَ وَعَصُوكَ وَكَذَبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ - أيضًا هذا في جهة أخرى يُحسب - فَإِنْ كَانَ

عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ -يعني: مساويًا لذنوبهم دون زيادة ودون نقصان - كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ))؛ لأن هذه بهذه، سواء بسواء. ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[النحل: ١٢٦] هذا سواء بسواء، لا لك

ولا عليك. قال: ((فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلَ)) استوعب الرجل المعنى تمامًا فماذا فعل؟ فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧] حبة من خردل فكيف بأمور كبيرة؟! ﴿أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾، فقال الرجل: والله يا رسول الله! ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا -يعني: من حل في هذا الأمر- خيرًا من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهم.

فهذا الحديث يوضح لنا المعنى الذي يشير إليه الشيخ رحمة الله عليه بقوله:

فَطُوبَىٰ لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ ... فَتَنْجُو كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا

يبقى الأمر هنا في هذا الباب أن يسبر المرء نفسه ويتأمل في أعماله. هذا مثال الآن فقط يوضح المسألة فيما يتعلق بالرقيق، لكن قل مثله في البيع في الشراء في الخدم في السائق في إلى آخره، في كل ما تتعامل به مع الناس والتعامل مع الناس تعامل مع أجناس في معادنهم وأخلاقهم وصفاتهم فلينظر المرء في هذا الباب، إن كان صار إلى هذا السبيل والتجوز والتخفف حتى يكون بهذه الحال: لا عليه ولا له، أو يكون في غاية اليقظة يعمل ويتعامل ويكون عنده الخدم ولا حرج عليه، لكنه يُنصِف؛ لأن الحساب بالموازين مثقال ذرة. وإذا عاقب أحدًا على إساءة إن لم يتفضل فإياه والظلم، فالظلم ظلمات يوم القيامة ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[الشورى: ٤٠] هذه مراتب، المراتب ثلاثة:

١ - **إما أن يجازي بالمثل**، فهذا لا عليه ولا له.

٢ - **وإما أن يعفو**، وهذا فضل منه على من عفا عنه.

٣ - **وإما أن يعاقبه بظلم: عقوبةٍ أشد**، هذا لا يحبه الله، ويعاقبه الله سبحانه وتعالى على ذلك.

فالحاصل: أن العبد ينبغي أن يكون في هذا الباب في تمام اليقظة، وأن يذكِّر نفسه دائمًا بالوقوف بين يدي الله وبالحساب، وأن الموازين تُنصب يوم القيامة، وأن الحقوق تؤدى: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) فيكون في غاية الحيطة وتمام الحذر، ويسأل ربه تبارك وتعالى النجاة والمعونة والتوفيق والسداد، فإن الأمر بيده وحده لا شريك له.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يهدينا أجمعين إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولولاة أمرنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تبارك وتعالى سميع قريب مجيب، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.